يشعر بمعاناته كعذاب مستمر لا يتوقف، مثل حركة القمر الدائبة في جوف السحاب. ورغم قساوة الشعور، إلا أنه وجد فيه الجمال. رؤيته لمشاعره كتجربة تستحق أن يخوضها كانت تعزّيه؛ ففي أكثر الساعات ظلمة كانت تنبسط أساريره ويقول: لقد شعرت بما لم أشعر به!

لم يحتفِ بالأفكار احتفاءه بالمشاعر؛ لأن الشعور يُحسّ بينما الفكرة تنشأ ضمن عملية منعزلة بعيدة عن شخصه. ورغم كثرة الأفكار التي طرأت له يومًا، لم يقدّرها؛ لأن ما أن تفقد إيمانك بفكرتك حتى تفقد الفكرة أهميتها.

كل ما يحدث أثرًا في شعوره، كحديث دافئ، أو مشهد بديع، أو موسيقى معبّرة، يسعى إليه سعي الظمآن للماء؛ ليحيا، ليرتوي، ليبقي على حياته.

فارتقاء الجبل كان يدهشه، لكن أن يجري منسابًا

ولأن للأفكار سلطة يذوب فيها صاحبها، قرر أن يكفر بها جميعها، وأن يؤمن بالشعور، لا بوصفه علّة لسلوكه، بل تجليًّا حقيقيًا للوجود. كان ذلك ما يبحث عنه، الحقيقة بعيدًا عن وهم اللغة، والتواء المفاهيم وغموضها. وفي تلك المنطقة النائية حيث يمكن للفن أن يوجد والأرواح أن تنطلق كان هو هناك ناصبًا خيمته، منغمسًا في الوجود.

أما ما يؤرقه من العواطف البائسة، والمشاعر المتناقضة اعتاد أن يرحب به. ربما لم يسعَ إليه سعيه لغيرها، لكن إذا احتلّ ذلك الإحساس موقعًا من نفسه فلا ينكره، ولا يرفضه، بل يشعر به كاملًا. فما دام حيًا فعليه أن يشعر.

اعتاد أن يسخر ويقول: كان الأحرى بمن يريد إثبات الوجود لذاتٍ ما أن يعود إلى أصله فيها، فأنا أشعر إذًا أنا موجود كان ما ينبغي أن يُقال. فالتفكير بوصفه لاحقًا للشعور، لا يتعدّى أن يكون معبرًا عنه للخارج، ليفهم الموجود غيره، لا أن يفهم نفسه. فلا ينبغي بنا أن نذهب بعيدًا ونعتبر أن الفكرة معبّرة، لأنها إن كانت كذلك فهي تعبّر بكلمة ناقصة، ومنطق ضعيف، وصورة مشوهة.

ومن خضم معاناته ارتأى له أن ما يميّز الإنسان ليس أفكاره، بل شعوره. وأن التجربة الإنسانية الأصيلة تجد نفسها في الشعور المعقّد، النادر حدوثه، حيث الكلمات لم توجد بعد. وأن العصر الحديث استطاع أن ينشئ علاقات لا محدودة بين المفاهيم، فالمخلوق الآلي مفكّر جاد وشاعر سيء.

كان يرى في عصرنا عصرًا للشعراء، ليس أولئك الذي ينظمون الكلمات، بل من يرون العالم بطريقة خاصة

ولأن من يعلم الكثير لا يعني أن يعرف؛ فأن يخوض المرء معتركًا أجدر به من أن يجلس بعيدًا وينظّر له. وكان هو بالمثل إذا أراد أن يفهم شيئًا، قدّم روحه قربانًا للوجود، واقترب من الحياة وتركها تأخذه بعيدًا عن شطآنها.

لم تكن الحياة قاسية معه، ففي كل مرة يأتي إليها تقول له: لن تحزن حتى أجعلك تسعد، ولن تشعر باللذة قبل شعورك بالألم، ولن ينزل المطر قبل أن ترعد السماء.

أما الآن فقد اقترب من الواقع، يصمت ليترك للشعور متّسعًا، ينظر له بعين مراقبة، هادئ ومنزوي، كمن يراقب مستعمرة نمل، تستمر خطوطها كاستمرار للشعور، ما دام يراقب.